المثقف العربي والمرحلة الراهنة

الاستاذ المساعد الدكتور
محمد احمد حسن(*)

مقدمة:

تعد ((أزمة المستقبل)) التي تتعرض لها الأمم والشعوب من اخطر ألازمات التي تمر في حياتها اليوم، فلقد كان احد مسببات هذه ألازمة في القرن الواحد والعشرين هو:
((المشروع الأمريكي)) الذي يسعى الى الهيمنة الكاملة على العالم، عن طريق العديد من المحاور :الثقافية والاقتصادية والعسكرية، والسياسية وصولاً ((الرأسمالية المعولمة)).

وإذا كان المنطق يؤكد انه لا يمكن للهيمنة الاستعمارية ان تستمر الى الأبد، فهذا أمر مستحيل ،لأنه ضد منطق التاريخ ، فان الذي يعزز المواجهة لكل التحديات هو ((المثقف)) لكونه الطليعي الذي يجعل ((الثقافة)) أداة في معركة المصير التي تواجهها الأمم والشعوب فهو الذي يمتلك زمام الثقافة وقيادتها ويحولها الى قوة يمكنها من الصمود في وجه ((التحديات)) "والثقافات" الأخرى.

ينطلق البحث من فرضية مؤداها هل للمثقف العربي دور متميز في المرحلة الراهنة؟ فاذا كانت الإجابة على الفرضية بالإيجاب، عند ذلك سيكون دور "المثقف العربي" في تكوين موقف تجاه بعض المفاهيم "كالثقافة" و"الثقافة القومية" و"حوار الحضارات" و"الثقافة والعولمة" حيث تمكنه من فهم واقعه الثقافي فضلا عن مساهمته في اغناء الثقافة الإنسانية.

المبحث الاول
مفهوم الثقافة والثقافة القومية

اولاً: مفهوم الثقافة:

تشكل النتائج التي تفرزها النكبات في حياة الأمم والشعوب عوامل أساسية لها اثرها وانعكاساتها على الثقافة والمثقف. واذا ما أضفنا مع هذه النتائج تأثير الظروف السلبية على الثقافة والمثقف ستظهر امامنا "حقيقة" مفادها ان: الثقافة قبل هذه النكبات لم تكن تستوعب بدقه معقولة قانون الصراع السياسي ،كما لم تكن تقدر التقدير الكافي بعد الصراع ولا أدواته ولا مقاييسه وأوزانه، وهذا ما يمكن ان نطلق عليه "ازمة

(*) استاذ في كلية التربية –الجامعة المستنصرية

الماضي" اما "ازمة المستقبل" فهي لم تعد مجرد ازمة العلاقة بين الثقافة وبين خط سير تطور المجتمعات، بل أصبحت بعد نكبات هذه الامم "ازمة العلاقة" بين الثقافة وبين مصير هذه الأمم، اي ازمة مركبة.

ولما كانت المرحلة الراهنة تتميز بـ"الهيمنة والاحتلال" و"ضياع الهوية الثقافية" فكل دور للمثقف العربي لابد ان ينطلق من خصائص هذه المرحلة ومن حاجتها الى التحليل والتحديد. بمعنى ان هذا الدور يتركز في المساهمة في تصحيح اخطاء المرحلة السابقة اولاً وصولاً الى جعل الثقافة اداة في معركة المصير ، كون الثقافة في مفهومها الصحيح هي: موقف كلي نظري وعملي من الحياة.

فالثقافة اذن ذات صلة حية بالحياة تتفاعل معها وتؤثر فيها، لان الثقافة ليست مطلقا بل هي اداة تغيير وموقف حي من المشكلات الكبرى التي تطرحها التحديات المصيرية على الشخصية الانسانية حيث ان فاعلية الثقافة تأتي من مدى تمثيلها لامال وطموحات الذين يحملونها ومن قدرتها على الإجابة على التحديات التي تواجه المجتمع، ومن صمودها في خضم صراعات عالمنا اليوم. لقد أصبح تفوق "الثقافة" اليوم يعني أمرا اساسيا واحدا وهو: الاتكون الثقافة على هامش حضارة العصر[١]. إن ينتفي دور المثقف عندما تختلف الثقافة وتبتعد عن روح العصر وعن مسايرة ركب التقدم، فالمثقف لا يكون مثقفا حقا بالابتعاد عن عصره وروح عصره، وهموم عصره وقضايا عصره، وثقافة عصره.

ولما كان المثقف هو "انسان" تتجلى حقيقته لكونه الشخص الذي يستوعب حقيقة ذاته وحقيقة مجتمعه وامته والمرحلة التاريخية الراهنة للتطور الإنساني، عليه ان يقرن مسيرته ببعض الخصائص والسمات ومنها: الايكون في مسيرته "هاوية" تفصله عن واقعة السياسي والاجتماعي[٢] وان لا يحمل تفويضا من اي انسان ولا يكون له كيانه اية سلطة[٣]. المثقف يجب ان يكون مبدعا، الان هذا الابداع لايتحقق عندما يريد ان ينتج في ذاته ولدى الاخرين "وحدة الشخصية الحقيقية"[٤]. المثقف من

---

(١) معن زيادة: معالم على طريق تحديث الفكر العربي، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٧، ص ٤٦.

(٢) غ.أ. غيبريل اي غالان "الكتابة والتحديات السياسية"، ترجمة ادريس الجيرولي، مجلة الفكر العربية، العدد٣، بغداد، ١٩٩٠، ص٩.

(٣) جان بول سارتر: دفاع عن المثقفين ، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات دار الاداب، بيروت ١٩٧٣ ، ص٣٦ .

(٤) المصدر نفسه، ص٤١.

يتسلح "بنظرة كونية" تحدث تركيبا بين التخصص والموسوعية، بمعنى انه لابد للمثقف ان يقرأ في تخصصات مختلفة[٥].

ثانيا: **الثقافة القومية:**

يؤكد الواقع بانه ليس هناك ثقافة عالمية واحدة، وانما توجد ثقافات متعددة متنوعة تعمل كل منها بصورة تلقائية او بتدخل ارادي من اهلها على الحفاظ على كيانها ومقوماتها الخاصة[٦].

فالثقافات القومية اذن تشكل عناصر التنوع والتعدد في حين ان الحضارة هي عملية اندماج التنوع والتعدد وانصهارها. ولكن هذا لا يعني ان الثقافات القومية تتشابه وتتماثل، فالثقافة القومية التي هي: السلوك المادي والعقلي والروحي الذي يميز شعب من الشعوب في مسيرته، ستظل التعبير عن خصوصية الشعب وعبقريته، وهي تكون كذلك بمقدار مشاركتها ومساهمتها في المسيرة الحضارية الواحدة ، اما اصالة الثقافة القومية فلا تكون بتحاورها مع ماضيها بقدر ما تكون بتفتحها على الثقافات الاخرى وتكاملها معها[٧].

فالامة العربية مثلا تتميز ثقافتها بانها ثقافة عربية فيها بعد تراثي وبعد راهن وبعد مستقبلي، اي ان الثقافة العربية هي تعبير عن شخصية تنمو وتتفتح وتتجدد وتبدع، والشخصية العربية هي وعي متزايد وموقف حيوي من مشكلات الامة. ومن الجدير بالذكر التأكيد على ان مفهوم "الهوية الثقافية القومية"، لايعني الغاء او اقصاء الهويات الوطنية والقطرية، ولا الهويات الجمعوية الاثنية والطائفية، فالتعدد الثقافي في الوطن العربي واقعة اساسية لا يجوز القفز عليها بل لابد من توظيفها بوعي في اغناء واخصاب الثقافة العربية وتوسيع مجالها الحيوي .

ان جميع الثقافات القومية لامم لها تاريخ حضاري يحكمها اتجاهان في تمييز ثقافتها:

الاول: الاصالة حيث تشكل واحدا من مكونات الحضارة القومية للامم ونعني بها: محاورة الماضي من اجل الحاضر والمستقبل[٨].

الثاني: الحداثة والتي تقوم على المشاركة والمساهمة في هذا التحول الكبير الذي تشهده الانسانية اليوم[٩]. فالحداثة اذن هي: مشروع حضاري يقوم على عدة اسس[١٠]:

---

[٥] عبد الاله بلقزيز: حوار مع السيد ياسين"من اجل تحليل ثقافي لظواهر العالم المعاصر" مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد ٣١٩ ،٢٠٠٥ ،ص ٤٧ .

[٦] محمد عابد الجابري، "عشر اطروحات"، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد ٢٢٨، ١٩٩٨، ص١٤ .

[٧] معن زيادة : المصدر السابق ،ص ٤٧.

[٨] المصدر نفسه، ص ٥٩.

[٩] المصدر نفسه، ص٦٧.

اولاً: الفردية وهي: استخلاص الفرد من شبكة الجماعية التي كان غارقاً فيها في القرون الوسطى.

ثانياً: العقلانية وهي: تقوم على الاعتماد على العلم والتكنولوجيا. ان ادراك مكونات الثقافة القومية في بعدي الاصالة والحداثة سيقودنا الى معرفة شروط التشكل الاصيل للمنظور الحضاري الذي يكمن في وحدة ابعاد الشخصية الحضارية المتمثلة في الصلة الحية بالماضي، والمعاناة الحية للحاضر، والتفاعل الحي مع روح العصر المنطلقة نحو المستقبل، حيث ان تفاعل هذه الابعاد الثلاث الماضي، الحاضر، المستقبل، يكون ضمن العملية الجدلية التي يتشكل من خلالها منظور حضاري اصيل وحديث، وكل خلل في هذه العملية يؤدي الى تشكل ناقص او مزيف ينتهي الى جمود يعطل تسارع النهضة، او ينتهي الى ضياع جديد، يربط المنظور الحضاري ربطاً تبعيا بنموذج مستعار.

المبحث الثاني
حوار الثقافات وثقافة العولمة

اولاً: حوارا الثقافات:

بعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار الثنائية القطبية، وتوقف الصراع الايديولوجي بين الشيوعية والرأسمالية، واشتعال ثورة الاثنيات والخصوصيات الثقافية، برزت الحاجة الى فهم العالم ثقافياً. اي اعتماد (منهجية التحليل الثقافي) الذي يعده السيد ياسين: المدخل الاساسي لتحليل العالم المعاصر[١١]. فقد انتهت اليوم الثنائية الفكرية المغلقة، وسقطت الثنائيات التي سادت في القرن العشرين، اما الرأسمالية اما الماركسية اما القطاع العام واما القطاع الخاص. في مقابل ذلك يطرح السيد ياسين: الانساق الفكرية المفتوحة التي تعتمد على التركيب لكن الجديد فيها هو ان سيحصل تركيب بين عناصر متضادة[١٢].

ان تحقيق الانساق الفكرية المفتوحة يعني الوصول الى الفكر الاخر، كما يشير ان الثقافة العالمية بحاجة الى (حوار حضارات) على حد تعبير المفكر الفرنسي روجيه غارودي، اذ يتطلب الحوار تحطيم الحدود والحواجز بين الثقافات الدينية والقومية سعيا للوصول الى نقاط التقائها من اجل الاسهام المشترك في حل المشكلات المشتركة

---

(١٠) عبد الاله بلقزيز، المصدر السابق، ص ٣٧.
(١١) المصدر نفسه، ص ٢٩.
(١٢) المصدر نفسه، ص ٣٠.

للانسان[١٣]. الا انه لا يمكن ان يكون هناك حوار حقيقي ما لم يقتنع كل طرف بان يتعلم شيئا من الاخر، ثم استعداده لاعادة النظر في معتقداته الخاصة[١٤].

فالمثقف يبدأ حواره من ارادة "الاعتراف " بالاخر ومن الايمان "بوحدة" الانسانية لكونه قانونا اساسياً في حياة البشر كما انه الاساس لخلق وعي حضاري يشكل ركيزة التطلع الجديد العالم يفتش عن حضارة جديدة .

فالحوار بين الحضارات وحده يمكن ان يولد مشروعا كونيا يتسع مع صنع المستقبل ابتغاء ان يصنع الجميع مستقبل الجميع .فالتجارب الحالية في اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية، تتيح لنا ان نرسم منذ اليوم الخطوط الاولى لهذا المشروع الكوني في القرن الحادي والعشرين[١٥].

ان ما يجب ان يدركه المثقف العربي هو ان الثقافة الكونية تحتاج الى مثقفين كونيين، فالتحدي امام "المثقف العربي" في حوار الحضارات هو في "اكتساب الكفاية المعرفية " على حد تعبير السيد ياسين[١٦].

فمهمة المثقف العربي ان يشارك في حل المشكلات الانسانية في حوار الحضارات في عصر يسمى "عصر عولمة المشكلات الانسانية " فليس هناك مسافة كبيرة بين المحلي والخارجي ، فالفقر وزيادة السكان والتلوث مشكلات محلية وعالمية وذلك لا مناصة من مقاربة تنمو نحو الكونية لفهم ما يجري في العا لم .

ثانياً: ثقافة العولمة:

تعني "العولمة " مصطلحا ومشروعا في اخص ما تعنيه اتساع العلاقات المفتوحة في المستويات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فهي ايديولوجيا تعبر بصورة مباشرة عن ارادة الهيمنة على العالم وامركته ، وقد حددت وسائلها لتحقيق ذلك في استعمال "السوق العالمية" اداة للاخلال بالتوازن في الدول القومية في نظمها وبرامجها الخاصة بالحماية الاجتماعية، وذلك في اعطاء كل الاهمية والاولوية للاعلام لاحدث التغيرات المطلوبة. على الصعيدين المحلي والعالمي وكانما يراد من العولمة "رسملة العالم غير الرأسمالي"[١٧]. والعولمة كما يراها الكثيرون "سيرورة" استثنائية تتحرك تجاه مجتمع كوني شامل يفرض هيمنة المذهب المادي في الفكر

---

(١٣) روجيه غارودي، في سبيل حوار الحضارات، ترجمة سليم العوا، ط٢، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، ١٩٩٩، ص٣٧.

(١٤) المصدر نفسه ، ص١٣٩ .

(١٥) روجيه غارودي : الاصوليات المعاصرة ، ترجمة خليل احمد خليل ، دار العين ،بيروت ،٢٠٠٠ ،ص٢١١ .

(١٦) عبد الاله بلقزيز ، المصدر السابق ، ص٤٧ .

(١٧) محمد عابد الجابري : قضايا في الفكر المعاصر ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٩٧، ص ١٥١ .

العربي الحديث، حيث تدعم هذا التوجه وتترافق معه "صيغ ثقافية وتكنولوجية" و"اسواق استهلاكية" تبنيها هذه "الرأسمالية المعولمة " والتي من بين اهدافها في مستوى الثقافي تخصيصها ؟ ظهور ثقافة كونية "احادية" تقوم عبر التفتيت باشاعة ما يطلق عليه، في مثل هذا المجال "الفوضى والتحكم" وهي من ابرز ما يشيعه "النظام العالمي الجديد"، الذي يواصل حركة البلوغ غاياته عبر اربعة محاور[١٨]:

الاول: هو محور الثقافة باكسابها طابعا ايديولوجيا يستمد مقوماته من "ثقافة عالمية احادية شاملة تشهدها في قطاعات الاستهلاك وفي النزعة الليبرالية، وفي تداول اللغة الانجليزية، والهدف منها هو تحويل الكثير من القيم المحلية والتقاليد المتوارثة التي تحكم حضارات اجتماعية مهمة عن مسارها.

الثاني هو: المحور الاقتصادي الذي يعد المحرك الاساس لهذا "النظام".

الثالث هو: القوة العسكرية التي تشكل عنصرا فعالاً لتحقيق ذلك وفرضه "نظاماً"

الرابع هو: المحور السياسي الذي ياتي محصلة لهذا كله، ويضمن تحقيق التفاعلات المتبادلة بين هذا الواقع بمعطياته .والفكرة الاساسية للنظام العالمي الجديد.

ان ما يهمنا في هذا كله هو تعيين الفضاء المجتمعي-الانساني الذي تتحرك فيه "ثقافة العولمة" والاثر الذي يمكن ان يكون في تجمع مجتمعنا العربي. فالمهمة الموكلة للثقافة-بحسب المنطق الراسمالي العولمي-هي: السيطرة على العقول باشاعة انماط ثقافية-حياتية جديدة سطحية المكونات والابعاد واتخاذها اساساً لكل عمل ثقافي[١٩]

ان العولمة في هذا الاتجاه اصبحت تحمل في طياتها نوعاً اخر من العنف الثقافي، اي من قهر الثقافة الاخرى لثقافة اضعف منها. لان العولمة الثقافية لاتعني مجرد صراع الحضارات او ترابط الثقافات، بل انها توصي ايضاً باحتمال نشر الثقافة الاستهلاكية والشبابية عالميا[٢٠].

ومع اننا نؤمن "بالعالمية" كونها تشكل اغناء للهوية الثقافية، الا اننا لنا موقف تجاه "العولمة" عندما تكون اختراقا لها وتمييعاً فالاختراق الثقافي الذي تمارسة العولمة هو الغاء الصراع الايديولوجي والحلول محله، الصراع الايديولوجي صراع حول تأويل الحاضر وتفسير الماضي والتسريع للمستقبل الاختراق الثقافي ليستهدف العقل التي يتم ذلك التأويل والتفسير والتسريع يستهدف العقل والنفس[٢١].

---

(١٨) ماجد السامرائي ،" تساؤلات عن الدور التاريخي للمثقفين العرب" ، مجلة الفكر السياسي اتحاد الكتاب العرب ، العدد ٢٠ ، دمشق ، ٢٠٠٤ ، ص ٧٨ .

(١٩) المصدر نفسه ،ص٨٠ .

(٢٠) جلال امين "العولمة والدولة"، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية العدد ٢٢٨، بيروت،١٩٩٨،ص ٣٤.

(٢١) محمد عابد الجابري "عشر اطروحات " ، المصدر السابق ، ص ١٧ .

لقد ادى الاختلاف في المواقف تجاه ظاهرة العولمة الى تباين اتجاهات التعامل معها، فهناك اتجاهات رافضة بالكامل، وهناك اتجاهات تقبل العولمة من دون تحفضات، كما ان هناك اتجاهات نقدية تحاول فهم القوانين الحاكمة للعولمة، وهو الاتجاة الصحيح. لذا فان مواجهة "العولمة" اخذت عند البعض حالة الانغلاق على الذات، او تمثلت في رفض الحداثة فكرة وافكارا وعند البعض الاخر كانت المواجهة قائمة على منطق الحداثة. ان الانغلاق على الذات هو الموقف الايسر اختراقا للاستراتيجية الرأسمالية الجديدة لواقع المجتمعات غير العربية التي واجهت العولمة برد فعل سلبي ،في حين مثلت الحداثة انقلابا فكريا جوهريا في الواقع الانساني، وخصوصا ما تمثل في رؤيتها الاساسية التي تركز على ان الانسان وبالتالي المجتمع هو المسؤول عن مصيره، وان الانسان صانع تاريخه، فاذا ما تمثلنا هذين الشرطين للحداثة في مواجهة العولمة، فاننا بلاشك سنتحرك بقوة ذاتية قادرة على ان تجعل للاشياء معناها، ونكون قد شاركنا فعليا في مستوى الابداع العربي في تطوير مفهوم الحداثة واغناء معناها[٢٢].

ان مهمة المثقف العربي هي في الاجابة على اسئلة تخص طبيعة العلاقة بالمشروع الرأسمالي الغربي ككل وبمراحله المختلفة وآخرها العولمة[٢٣]:

فالسوال الاول: ينصب على الكيفية التي تجعل بها هذا (التعامل الفعال مع التاريخ) سبيلا للتحرر: تحررنا نحن من اشكال الاستلاب كافة .

والسؤال الثاني هو: كيف نخلق الشروط الملائمة لهذا التفاعل في واقع عالمي-عولمي تهيمن علية "قطبية واحدة ".

والسؤال الثالث: كيف/ومن اين السبيل الى تطوير القيم الانسانية، بما فيها القيم الثقافية، لتجعل من الثقافة والفكر، ببعديها الانساني، قوة تاريخية لخير الانسانية

ان الواقع العربي باحداثياته والتوقعات المستقبلية له يطرح على المثقف العربي[٢٤]:

١. قضية ثقافية التي هي "ثقافة امة تاريخية " حيث يطالبه بالانخراط في الحركة التاريخية الحاضرة لمناهضة العولمة، والتي ينخرط فيها مثقفون كبار من العالم كله ،ومعهم عدد من كبار المثقفين العرب الذين يتعاملون مع هذا "المعطى العولمي" بكل ما يتطلبه التعامل مع فكرة جديدة تعني المجتمع الإنساني مستقبلا ومصيرا.

---

(٢٢) ماجد السامرائي ، المصدر السابق ، ص٨٠ .
(٢٣) المصدر نفسه ، ص٨١ .
(٢٤) المصدر نفسه ، ص٨٢ .

٢. انه لاول مرة يتزامن فيها المثقف العربي فكرا وتفكيرا واهتماما، مع المثقف في إنحاء أخرى من العالم، أسهاما في الحوار الدائر حول قضية يرى فيها الجميع قضية الحاضر والمستقبل: العولمة ومستقبل الإنسانية، اذ ينطلق المثقف العربي في إسهامه هذا من شروطه القومية، الثقافية والحضارية-التاريخية.

٣. ان يتقدم المثقف العربي الى واقعه، كما الى نفسه من خلال عمله-دوره الثقافي في مجتمعه بمقترحات في مستويين: مستوى قراءة العولمة ،ومستوى مواجهة العولمة، وهما أمران مهمان يرسمان ويؤكدان إبعاد الاستراتيجية الثقافية لهذا المثقف. ومع ان العديد من المثقفين العرب يؤكدون اليوم على أهمية التمسك بالثقافة القومية ويشددون على تكريس فكرة الامة في مالها من وجود ثقافي وتاريخي حضاري، فان المحافظة على الشخصية العربية وتحصينها من هذه التأثيرات العولمية لابد ان تكون نقطة الانطلاق لها في خلق المناعة الثقافية وتكوين الحس النقدي، جنبا الى جنب مع الانفتاح الثقافي الاصيل المرتكز الى وعي يستمد من التراث القومي في الماضي ومن المجابهة الدائمة للتحديات الراهنة مادة لبناء ثقافة معبرة عن شخصية الامة، وجعل هذه الشخصية بمستوى القدرة على تحقيق تحول تاريخي في حياة الإنسانية.